الإنســـــــــــان : عن الفطـرة والأطفـــال... الأصـــــل والصـــــورة !! (الجزء الثالث)

أ. د. يحيـى الرخـــاوي – الطـب النفسـي – القاهـرة، مصـــر

yehiarakhawy@yahoo.com – www.rakhawy.org

أمـا قبـل: الصراط المستقيم الذى نطلب من الله تعالى أن يهدينا إليه فى كل قراءة فاتحة هو غير محدد ألفاظا، برغم أن أغلب المفسرين الأفاضل أصروا أن يحددوه كل بطريقته، ومن موقعه وعلى مسئوليته، من منطلق الاستلهام وليس التفسير: وقفت طويلا عند هذا التعميم المعجز فى آيات صورة الفاتحة، وكأن هذه الآيات توصينا بأن الصراط المستقيم هو الصراط المستقيم، لا أكثر، فإذا أصررنا مثل الأطفال على أن نتمادى فى التساؤل، هذا حق كل طالب معرفة، جاءت الإجابة أنه "صراط الذين أنعمت عليهم". تلقيت وحى هذه الآية الكريمة بأن نعمة الله على أهل الصراط المستقيم تمثل دائرة إيجابية تغذى بعضها بعضا، أى أن فطرة كل واحد، بفضل الله، تهديه إلى الصراط المستقيم فهو الحق تعالى، فينعم الله عليه، وهو يدعوه بأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وهكذا دواليك، لكن الطفل/الإنسان قارئ الفاتحة لا يتوقف عن مواصلة التساؤل لمزيد من الإيضاح، فنأتيه الآية تلو الآية بأفهم، ببساطة، غير المغضوب عليهم. ولا الضالين، فنتأكد عندى ملامح الفطرة، وكيف أن من يشذ عن الصراط المستقيم المتناغم مع الجميع فى الكون إلى الله، يصبح مثل النيزك الضال إذ ينفصل عن أصله، نشازا شاردا، لم يعد يمثل تلك النغمة الإيمانية التى تشترك فى عزف لحن الإيمان الكلى إلى وجهه تعالى.

كيـف نقـى أولادنـا من التعصـب؟؟

أولا: الحكايـــة

كان الشاب ملتحيا جدا، وجهه سمح، فيه طيبة مصرية برغم أنه كان أبيضا ناصع البياض، لحق بى بعد المحاضرة (سنة 1 طب) أيام كنت ألقى محاضرات فى مبادئ علم النفس الطبى، وطلب بأدب جم أن نواصل الحوار فيما أغلق عليه فيما قلته عن موقفى الشخصى أثناء المحاضرة مما لم يفهمه جيدا، يبدو أنه كان لايتفق مع منظومته . قلت له على شرط، قال أقبله، قلت : لنتفق أن ما يسرى عليك يسرى علىّ، قال هذا تفضل منك، قلت بل هذا هو عدل الحوار. قال طبعا، قلت له لنفترض مجرد فرض أننى خرجت من الحوار مقتنعا برأيك حتى غيرت ما كنت أقوله، أشرق وجهه بالبشر ولم يتردد قائلا: نحمد الله أن هداك إلى الحق، قلت لنفترض – لا قدر الله – أن العكس حدث، قال أى عكس، قلت لنفرض أننا خرجنا من الحوار وأنت مقتنع بعكس ما هو فى فكرك الآن حتى اضطررت أن تغيره، تردد قليلا، لكنه وزنها، فسأل مستوضحا – قال: ماذا تعنى بعكس ما أنا فيه، قلت له أنا لا أعرف ما أنت فيه، ولا ما تعتبره الصواب كل الصواب ولا شئ غيره صوابا ، لكن لا بد دأن له عكس ما. انزعج هذه المرة أكثر. قلت له أنا أصدقك، وليس عندى نية أن أزعجك، ولا أ ريد أن أقنعك بشئ، ولا أنا انتهيت إلى يقين نهائى فى معظم الأمور، وما ذكرت فى المحاضرة هو مجرد رأى شخصى يحاسبنى الله عليه، قال مطمئنا: إذن نتحاور. قلت له: إذا كنت واثقا كل هذه الثقة أنه من المستحيل أن تتحرك بعيدا عما أنت فيه الآن، مائة فى المائة ومستحيل أن يتزحزح فى اتجاه آخر. فلم الحوار، وفيم الحوار يا بنى، ربتّ على كتفه ودعوت له بالتوفيق فدعى لى بالهداية. انتهت الحكاية.

هذا شاب طيب جميل، لا هو متهور ولا هو إرهابى ولا هو جماعات (هذا ما رجحته) لكنه هو هذا الشاب الطيب الجميل.

برغم ترجيحى أن هذا الشاب غير قادر أن يقتل نملة، فقد تـصورت أنه أرض خصبة تماما لو وقع فى يد من يجعله يفجر نفسه فـى بعـض أهله يوما لفعلها يقينا.

ماذا يصير بأولادنا إلى هذا؟

ما الذى يصير بأولادهم إلى ذاك؟ (يعذبون إخوتهم البشر فـى أبـو غريب وجوانتا مالا وفلسطين وأفغانـستان والبلقـان وأمريكـا الجنوبيـة والشمالية، وشمال أفريقيا...وعبر العالم ؟)

لقد خلقنا الله من نفس واحدة، وجعلنا شعوبا وقبائل لنتعـارف، كيـف نتعارف؟ تجربة: ضع رضعا مع بعضهم البعض منذ الولادة، إجمعهم من كل صوب وحدب، لا تقل لهم شيئا، لا تسمهم، ولا تذكر لهم وطنا، دعهم يسمون أنفسهم، أو يسمون بعضهم البعض. سـوف يعرفـون الله، ولـن يكرهوا بعضهم البعض أبدا، ولن يقتل احدهم الآخر، ولن يعـذب أحـدهم الآخر مهما حدث، هذا بعض مغزى مواز لما تخيله ابن طفيل فى "حى بن يقظان".

نستمع إلى الأغنية التى كتبتها للأطفال أساسا ضـمن التجربـة التـى ألهمتنى هذه السلسلة فى رمضان:

أغنيـــة للأطفـــال

الدنيا مش أبيض واسودْ
الدنيا كتير والناس ألوان

وقديمك لازم يتجدد
لو كنت صحيح مخلوق إنسانْ

مش معنى كده تبقى رمادى، أو من غير لون
كل المطلوب إنك تفهم : إنك "كائن" "عمّال بتكونْ"

فتح عقلك للى ما تعرفشى كتير عنه
وضرورى جا تلقى انك عايز حاجه منه
ما هو هوّه كمان مش حايسيبك إلا مع بعض
ربنا سوّانا سوَى جميعا من طين الأرض

كده تقدر تكبر وتكبّر
كده تقدر تفهم وتقدر
تلقى الأبيض جوا الإسود : لاتنين حلوين
والعكس صحيح، طيب جرّب، يا حلاوة الطين

القـــراءة (للكبـــار)

الأطفال يسألون بصدق وتعجب عن أصلهم وفصلهم، ولماذا ولد الأسود أسودا؟ والأبيض كذلك؟ ولماذا وجد محمود نفسه مسلما؟ فى حين وجد رياض نفسه مسيحيا؟ ولماذا لم يستشيرو أيا منهما ربما اختار غير ما اختاروا له، ولكن هل هم اختاروا له، أو لأنفسهم أصلا؟ نحن نجيبهم عادة إجابات عجيبة من أغربها: أن نطلب من أى منهم أن يحمد ربنا أنه ولد هكذا، لأنه لو كان ولد "غير هكذا" لذهب إلى النار، ولا نلاحظ ونحن نجيب هذه الإجابات، أن الفريق على الجانب الآخر يأخذ نفس الموقف، ويقول نفس الكلام.

المسألة برغم كل هذا شديدة الصعوبة. إن أى تنازل عما وجدنا أنفسنا فيه هو بمثابة التنازل عن القاعدة التى ننطلق منها إلى ما هو نحن. إن أى تمييع للموقف، خاصة من جانب واحد، هو دعوة للاشىء، ومن ثم سيطرة الأقوى والأغبى.

ما العمل؟

الغنوة تشير أولا إلى اتساع طيف الاختلاف، وكم هو ممتد ومتنوع أكثر بكثير من هذا الاختزال إلى أبيض وأسود، خاصة إذا كنا نتصور أن الأبيض هو دليل النهار والضوء والنقاء، وأن الأسود عكس ذلك. فى نفس الوقت هى تنبه إل رفض أن يكون الحل هو الرمادى أو حتى درجات الرمادى، فكل الألوان مطروحة على مدى التاريخ والجغرافيا. "الناس ألوان".

نأتى لما يمكن أن نستلهمه من الآية الكريمة: "وخلقناكم شعوبا وقبائل "لتعارفوا": كيف يتعارف الأغيار، وكيف يتعارف الاضداد، الأرجح أن الطفل أقدر على قبول الاختلاف من الكبير الذى تبرمج على أن الصح هو واحد فقط، وأن هذا الواحد هو الذى يعتقده دون ما يعتقده الآخر. هذا لا يحدث إلا على مستوى الأفكار (أنظر الأغنية الثانية، عن تصلب الفكر ومرونته) الفكر هو أكثر تشنجا من الوعى والحس والجسد، الفكر الظاهر يتمسك بمعتقد ايديولوجى منظم يحتمى به ويتحرك داخله، أما الجسد فهو لا يعرف سوى الإيمان الأشمل، الجسم الأبيض يتكلم نفس لغة الجسم الأسود، لكن العقل اليسارى لا يتكلم لغة العقل اليمينى، والعقل البوذى لا يتكلم لغة العقل الروسى. الإشكال إذن هو فى محتوى الفكر وثباته . أول أبعاد محاولة كسر التعصب هو أن نحسن الإنصات إلى لغات كثيرة، وقنوات تواصل مختلفة، حالة كوننا نتعارف، بديلا عن ادعاء التسامح والقبول الشكلى. نحن نتعارف. البعد الثانى هو أن يتم ذلك فى حالة حركية دؤوب. المحتوى الفكرى بالذات يصبح سجنا وقيدا إذا سكن، أما إذا تقلب وأعيد النظر فيه طول الوقت فإنه يصبح مرنا قابلا للمراجعة، الحركة ليست فقط فى القرب والبعد، ولكن فى التجدد والمراجعة.

الحلول الوسطى (الرمادى) ليست هى الحل، وادعاء التنازل عن الهوية والمعتقد ابتداء ليس تصرفا واقعيا أو ممكنا. لا يوجد حل سهل. يبدو أن بعد الحركة هو السبيل الصحيح لتأكيد البرنامج الحيوى الذى أسميناه "الفطرة". : إننا فى حالة "تكون مستمر"، القضية ليست شكسبيرية هملتية: "أكون أو لا أكون"، القضية هى "أكون كما استلمت نفسى، أم أتكون كما أستطيع"، بل إنها بلغة الفطرة : "أنا لا أملك إلا أن أكون كما استلمت نفسى، لأتكون كما أستطيع ويتاح لى" (كل المطلوب إنك تفهم إنك "كائن: عمال بتكون").

تعبير "مش حايسيبك إلا مع بعض" ربما له دلالة أكبر مما يبدو لأول وهلة، كيف يتركك الآخر وأنت معه؟ إن الجدل الحقيقى هو الذى يخرج منه الاثنان مختلفين عما كانا قبل بدايته، فكأن الواحد يترك الآخر الذى بدأ معه الجدل ليجد نفسـه "معه" بعد أن أصبح آخرا جديدا، لكنه هو، فأنت تتركه لتلقاه جديدا، وهو كذلك. نشاط هذه العملية لا يتم بأمان إلا فى رحاب الآخرين تناغما مع حيوية وإيقاع نبض الكون فى آن، تحت مظلة مشتركة (اجتمعا عليه، وافترقا عليه) متجهين إلى مطلق مفتوح النهاية: "مع"، و"كل على حدة" فى نفس الوقت.

البداية واحدة (ربنا سوأنا سوى جميعا من طين الأرض) ، قد يختلف الطريق، لكن كيف تختلف الغاية؟. النمو مثل الحرية لا يكون إلا مع آخر يمارس نفس العملية، من هنا يمكن فهم تلازم "تكبر و تكبر". لكى تكون حرا لا بد أن تحرص على حرية الآخر، على نفس القياس لكى تواصل نموك لا بد أن تتيح الفرصة لآخر ليواصل نموه، لتلتقيا فى نقطة مجهولة، عادة هى أبعد من أفق العمر الافتراضى لأى فرد كان. هذه مسائل تحتاج إلى وقت طويل فى مناخ صحى مبدع.. النتيجة المأمولة هى إلغاء الاستقطاب (الدنيا مش أبيض واسود)، لأنك سوف "تلقى الأبيض جوا الأسود، لاتنين حلوين، والعكس صحيح"- هذه ليست تسوية مائعة، الأبيض ليس بجوار الأسود، ولا هو مختلط به ينتجا الرمادى، ولا هو متبادل معه فقط، لكنه بداخله من أصل واحد (ياحلاوة الطين) يتفاعلان بالتجربة المتجددة أبدا.

هذا كلام كبير صعب، ربما يخففه أن نستمع إلى قصيدة صلاح جاهين "إفريقية" خفيفة الظل فائقة الإبداع.

ثانيـــا: القصيـــدة

"كـــلام الرجـــل الأبيـض"

- أبيض، وفنطازيه
ومراتى ألمظّيه
وربنا اصطفانا،
عشان حُمرة قفانا،
وشيّلنا الأمانة،
اللى تِقْل الرزيّه.

"كـــلام الرجـــل الأســـود"

- أسود، ودمى حامى،
حامى الحمى ياحامى،
مافيناش لونكم ولوننا،
ماما مِدِيّاهولنا...
ومشهّده المحامى.

"كـــلام الرجـــل المحامـــى"

- محامى كبير قانونجى،
وفى الكلام برنجْى
شايب وشكلى رائع،
فاهم كل الشرائع...
لابيض – وده رأى شائع –
أبيض، والزنجى زنجى

"كـــلام الولـــد الأبيـــض"

- والله "الجلاس" ماادوقه،
يا الزنجى ينول حقوقه!
تلميذ، وباستهجّى،
لكن فى الرأى.. حجه!
العالم بدُّه رجّه،
عشان تمسح فروقه!

"كـــلام الرجـــل الأفريقـــى"

ياليل . . والبدر بمبى . .
يا ليل . . وألم فى جنبى . .
يا ليل . . مقدرش أنام بو . .

يا ليل . . و "لومومبا" قام بو . .
يا ليل . . أنا سجنى بامبو،
وان ماكسرتوش . . ده ذنبى!

القـراءة

هذه القصيدة قد تفقد نبضها إذا نحن قرأناها تفصيلا ، لكن النهج المتبع فى هذا الباب هو أن نشير دون شرح مشوه، إلى الرسائل التى نريد إبلاغها للناس من خلال تنوع الإبداع الذى يضيف معارف متوازية لعطاء قنوات المعرفة الأخرى. نلاحظ هنا مثلا كيف يفخر الأبيض ببياضه، فيعين نفسه مسؤولا عن نشر وتسويق ما حقق من مزايا وتفوق (قارن الدور الأمريكى هذه الأيام برغم أن كونداليزا رايس سوداء، وكولن باول أسود؟) صلاح جاهين هنا ينبه كيف أن الذى يميز نفسه هكذا إنما يعين نفسه وصيا على الآخرين، بل إنه يعزو ذلك إلى تفضيل الله له على غيره بسبب لونه لا أكثر، "وربنا اصطفانا، عشان حمرة قفانا، وشيلنا الأمانة اللى تقل الرزية". مع أن الله سبحانه عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان. إذن الله لم يحملها للإنسان، بل هو الذى تصدى لحملها حتى دون أن يعرضها الله سبحانه عليه، لكن الأبيض هنا (تماما مثل عمنا بوش) يعتبر نفسه وصيا على البشر، ليس هذا فحسب، بل هو يمن على سائر البشر بأنه متعب من ثقل الأمانة التى حملها من أجل خاطر عيون بقية البشر الملونين، والبدائيين.

نلاحظ أيضا أن موقف الطفل الأبيض هو عكس ذلك تماما، فهو يعرف أنه لا يكون إنسانا بلونه، وهو يضرب عن أكل الجلاس حتى يأخذ الأسود حقه "والله الجلاس ما ادوقه لا الزنجى ياخد حقوقه"، ليس هذا فحسب، بل هو يعلنها صريحة أن العنصرية التى يقودها الكبار (الأثرياء عادة) إنما تحتاج إلى ثورة عالمية لتتغير (العالم بده رجه، عشان تمسح فروقه).

موقف الرجل الأسود ضعيف (قان الإفريقى) يحتج بأنه ولد هكذا، وكأنه كان يتمنى ألا يكون هكذا، وكأنه يدافع عن ذنب لم يرتكبه (تذكر مايكل جاكسون)، وهو يستنجد بالمواثيق الإنسانية العالمية (مافيناش لونكم ولوننا، ماما مدياهولنا...، ومشهده المحامى)، لكن المحامى-عمليا- يضرب بالمواثيق عرض الحائط يعلن تأكيد التفرقة، وأن الأبيض أبيض، والأسود أسود (لابيض – وده رأى شائع – أبيض، والزنجى زنجى)

تنتهى القصيدة، أو تكاد تنتهى بتحميل المظلوم (لأنه أسود، أو لأنه إفريقى) مسؤولية أن يخترق هذا التمييز بإنجازه شخصيا، وليس بانتظار العطاء من الأبيض أو من المواثيق (يا ليل دانا سجنى بامبو، وان ما كسرتوش ده ذنبى). الإفريقى الذى يتألم، يدفعه الألم إلى أخذ حقه بما يفعل، لا بما يعلنونه ولا يمارسونه.

الطفل (الولد الأبيض) هو أبعد المتحدثين عن التعصب.

الطفل، والجسد، والفطرة، والأحرار، هم الأصل. هم الذين لا يفرقون؟

المواثيق، والوعود، والمناظر، واللاشعور هم المتعصبون العنصريون مهما ادعوا وأشاعوا. الطفل محمود سيد على يستحيل أن يتصور أن الجالس بجواره فى الفصل، من شبرا، وسنهما سبع سنوات، سوف يذهب إلى النار لأن والده اسمه جرجس، ورياض جرجس عبد السيد ، وهو جار محمود، لا يتصور أن يذهب محمود إلى النار لأن أمه اسمها فاطمة.

ذات مرة تقمصت هؤلاء الأطفال وأنا أعبث بمذياع فى حجم الكف (ترانسستور)، وكلما سمعت رطانا لا أفهمه ، سألت نفسى – مثل محمود أو رياض – هل صاحب هذا الصوت سيدخل النار؟ وكانت إجابتى مثلهما تماما. وكتبت فى ذلك ما أقتطف جزءا يسيرا منه.

ثالثـــا: القصيـــدة

غصبا صدفه
لمست إصبعىَ المفتاح
فسرت كلمات عجميه
تنساب إلى عمق النبضه
تنتزع السيف من الغمد
تلتهم ظلام الرؤية
يتبين خيطى من خيطي
فيطل الفجر الأصدق
يجتمع السامر من أحباب الله
البيض السمرِ السود الحمر
البيذقُ والفرزُ ورخٌّ الشاه
.....

-2-

تنكسر الموجة تتفتر
تترنح من طعن مؤشر
.....
يتراقص سهم الأفق يفتح وعيى المرتجف الأعشى
- فيرينى العالم
- رؤية يقظان كالنائم-
مذياعا ملقى
فى حجم الكف
.....
يمتد اللولب
يتلألأ مطر الرحمه
تتفتح
للسمر الصفر البيض السود لكل الألوان
للفيل الأبيض والسنجاب الأزرق والإنسان

أدعو القارئ أن يقوى إيمانه بمثل هذه التجربة باستعمال الترانسستور، والتساؤل عن صاحب كل رطان، إن كان سيذهل إلى النار؟ عدل الله سبحانه ورحمته، أكبر من كل تصور: سوف ينجح الطفل ويفشل الكبير: غالبا.

فى تجربة الأغانى التى كتبتها للأطفال مستلهما نبضهم الفطرى، حاولت أن أبين كيف أن أى فكرة هى ليست إلا وسيلة للتشابك مع فكرة أخرى (بما فى ذلك المعتقد)، وأن الفكرة الثابتة مهما كانت متانة قائلها، وأسلحته، وزعم تقدمه، لا قيمة لها إن لم تتحرك وتحرك، هذا ما أنهيت به هذه الأغنية التى سأختم بها المقال دون تعليق.

رابعـــا: أغنيـــة ختاميـــة (للكبار والأطفال)

.....
إوعى تصدق ان الفكرة كده وحدها صحْ.
إوعى تصدق إنها إما: كُخ أو دَحْ.
الفكرة تجيلك إوزنها
مش بس تقولها "تدوِّنها" !!
تعرف حقيقتها بتأثيرها
واذا نفعْت: تفرحْ: تعملها
وان خابت يبقى تشوف غيرها
فِكرك مش دايما هو الصح
.....حتى لو صح
ما هو فكر الناس التانيين صح

راجع فكرك مع ناس تانيين
حلوين وحشين
حاتلاقى حاجات مش على بالك
حاتلاقى الكون غير ما بدالك

طب جرب تقعد فى مكانهم
مش بس حاتشوف شوفانهم
دانت حاتتخض من نفسك
وتراجع فكرك وحواسّك
فكرالتانيين ثروة خسارة
تفلت منك كده يا سمارة
ماتقولش عليه دا كلام فارغ
مش يمكن انت المش سامع

الفكرة التانية المنبوذة
يمكن تلاقيها لها عوزة

الفكرة قيمتها فْ تحريكها
مش فى متانة إللى ماسكها

أمـــا قبـل

كيف تتشكل الشخصية؟ كيف تتكون الهوية؟ بدءا من أى سن؟ هل نحن نعرف أولادنا أم نصنعهم؟ هل الصورة التى نرسمها لهم أو التى نفرضها عليهم تمثلهم، أم ألها بداية لا مفر من مراجعتها؟ هل هى معالم شخصية تتحدد أم حركة دائبة تتجدد، لها بداية لازمة، ومسار دائم المشوع؟ ما هو الحد الفاصل بين صورة أطفالنا كما تبدو لنا؟ أو كما نريدها؟ وبين حقيقتهم كما هم؟ هل نحن نستعملهم لنسقط عليهم ما عجزنا أن نكونه؟ ، أم نتفاعل معهم لعل وعسى، لنا ولهم؟

الحكاية أن ثم بداية ينزل بها الطفل من بطن أمه وهو يحمل كل الاستعدادات الوراثية التى تؤهله أن يكون ذاتا مستقلة تسير إلى ما يصير بها كيانا ممتدا. إننا نلبسه فور حضوره بيننا ما تيسر من إسقاطاتنا، وآمالنا، وأحلامنا، وقد تكون هذه نهاية المطاف، وقد تكون بداية الطواف.

✦ **عن الفطـرة والأطفـــال الأصـــل والصـــورة !!**

الأغنية كتبتها للأطفال منذ أقل من سنة، أما الحالة التى أعرضها مطولة هذه المرة، فقد فحصتها منذ ستة أسابيع. التطابق يقول الكثير حتى دون تعليق، أو تقديم، وهذا ما غاب اليوم.

الأغنيـــــة

آنا بصيت فى مرايتي
شفت نفسي: هىّ صورتى
إنما رْجعْتِ فْ كلامي:
إللى شفته "مش أنا بدر التمام"!
آنا كام؟
إنتو شايفين اللى برّة
بس ده مش هوّا هوّا كل مرّة
أنا لسّه ليّا جوّة
حتى باين: إنى هوّه
"أنهو أحسن؟"
أنهو أحسن !!!!
آنا أحسن!!
يعنى انا": هوّا "أنا" !!
آنا قصدى
آنا كلى على بعضى
باتعَمَل منّك ومنّى
بابقى "انا"، "مش غصب عنى"
شفتْ : انا ما بقيتشى صورتى،
آنا باتكوّن بحيرتى.
مش أنا الشخص إللى إنتَ كنت "فاكرُه"
مش أنا الشخص إللى إنت كنت ناكرُه

آنا خلقة ربنا،
حابقى نفسى ليّا انا
حابقى نفسى واحده واحده
حابقى زى ما حالْقَى نفسى مستعدّهْ
آنا حابقى نفسي ليكم، يعنى ليّا
آنا حاسمح إنى أملاَ نفسى بيّا،
حاتلاقينى فى رحابه زى ما هو خلقنا
عمْ باخبّط عالَى بابه: زى ما غِيرنا سبقنا

القـــراءة

الحيرة تحتد فى أزمات النمو (بالذات أزمة المراهقة ومنتصف العمر، أنظر الحالة)، والمفروض أنها حيرة إيجابية ضرورية للتكوين، برغم إزعاجها الذى يصل أحيانا إلى درجة المرض.

المسألة ليست كما تصورها الدراما المسطحة، أو التشنجات شبه الثورية، من أن ثمة صورة مغتربة تُـفرض فرضا علينا من مجتمع خائف منافق مغترب، ثم ينشأ صراع بين ما هو ظاهر متبلد، وما هو داخل مقهور، فتتحيز الدراما إلى الداخل، أو الأصل، أو الحقيقى، ضد الخارج، أو القناع أو الزائف، كل هذا شائع ولا يمثل بالضرورة حقيقة مسار النمو.

نعم، لكل منا ما هو ظاهر به، أو ما يسميه يونج القناع Persona، علينا أن نعترف أننا بحاجة إليه، فمن ناحية هو يسمح بأن يكون لنا شكل محدد المعالم حتى لو لم يمثل "كل" ما هو نحن، ومن ناحية أخرى هو يغطى، وإن كان يخفى، بقيتـنا، يخفى منا ما لم يستعد بعد أن يلقى العالم الخارجى بما هو لم يتشكل. حين تقول الأغنية :"إنتو شايفين اللى برة ، بس ده مش هوا هوا كل مرّة، أنا لسه لى جوه، حتى باين: إنى هوه" تفتح الباب لعدة أمور منها: (1)الاعتراف بأن حضور معالم محددة لما يسمى الذات أو "أنا"، هو حضور متغير بحسب المواقف وحسب تغير مرحلة النمو، (2) أن رفض القناع الذى يمثل ظاهر وجودنا فى فترة بذاتها، ليس هو الحل، المطلوب هو أن يكتمل بما وراءه "آنا لسه ليا جوه". (3) مع احترام حضور هذا القناع إلا أن الجوهر الذى يمثل ما هو "أنا" هو أقرب إلى ما وراء القناع "حتى باين : إنى هوه" (4) إن مجموع كل هذا هو مشروع ما هو "أنا"، لكنه ليس مجموعا جبريا، لكنه جماع جدلى يتكون من مشروعى الأول الذى ولدتُ به وتغطى مؤقتا بالقناع، إلى ما ينطبع فيه من شخوص الخارج: آنا كلى على بعضى، باتعمل منّك ومنّى". هذا الجدل بين الخارج والداخل يسمح بالاعتراف بالتقمص سبيلا إلى النمو الطبيعى، وهو يتجاوز ذلك الصراع الشائع الذى يتمثل فى صيغة "إما- أو"، وأن علينا أن نصنف اجزاءنا وبعضنا البعض إلى قاهر ومقهور.المبدأ الجوهرى هو استيعاب الحيرة إزاء حركية هذا التعدد، ليسير النمو فى مساره الطبيعى" بابقى "انا"، "مش غصب عنى"، لأ ، دلنا ما بقيتشى صورتى، آنا باتكون بحيرتى". مع استمرار النمو، يرفض ترجيح تركيب جزئى على حساب الباقى، كما يرفض أن يحل القناع محل الأصل، ولا أن نفرض الداخل فجا باعتباره الجوهر.

النتيجـة المستمرة (وليس النهائيـة) أن تنطلق خطوات النمو فى جدل

متصل، مع مكونات الذات المتعددة من جهة، ومع الآخر الخارجى من جهة أخرى.

لا يوجد فى الدنيا ما يسرع بخطى النمو فى غير أوانها (يسلقها، يشعوطها)، "حابقى نفسى واحده واحدة"، وهى عملية ليس لها نهاية، إمكانات أى ذات بشرية غير محدودة، وهى تتفجر باستمرار إلى ما لا نعرف "حابقى زى مالاقى نفسى مستعدة" . عملية النمو، ليست فيها منتصر ومهزوم، الطفل ينمو حين يستوعب والديه، لا حين ينتصر عليهما، والوالد يواصل نموه حين يطمئن أن انفصال ابنه عنه هو لصالحهما معا " آنا حابقى نفسى ليكم، يعنى ليا" . ولأنها نهاية مفتوحة، هى ممتدة فى هارمونية الكون إلى وجه الحق تعالى، وحين تسير الأمور فى مسارها السوى، يمتلئ كل واحد بما هو متوجه إليه فى حركة دائبة، هو لا يحقق ذاتا متميزة تماما خوفا أو غرورا مهما حققت من مكاسب وتحددت بمعالم، إنه بما هو ذاته فى حالة تكون نابض متواصل، هو يمتلئ بحركية التناغم مع الكون إلى المطلق" آنا حاسمح إنى أملى نفسى بيا، حاتلاقينى فى رحابه زى ما هو خلقنا، عم باخبط على بابه: زى ما غيرنا سبقنا". هذه هى سنة التطور.

حالة الشاب التى سوف نعرضها وقد وصلت إلى درجة الذهان (التشخيص الوصفى : فصام!! للأسف) وهى تعبر عن المعانى السابقة فيما هو إمراض، وإن كانت قاصرة على إظهار كيفية رأب الصدع، واستعادة صحة مسيرة النمو.

النـص البشـرى (الحالـة)

هو شاب وسيم جدا، (ليكن اسمه محمود) "أمور"، (بحسب تعبير ثلاث طبيبات على مدى سنتين) أصغر إخوته (المريض له سبعة إخوة خمسة منهم أشقاء وكلهم وصلوا إلى تعليم متوسط وأنهوه بنجاح ويعملون)، هو من قرية قريبة من القاهرة ، عمره 20 عاما، مازال فى السنة النهائية ثانوى صناعى، كان يعمل أيضا بشكل متقطع سواء فى مساعدة والده (فلاح). والدته تتاجر فى الخضروات جائلة فى الأسواق. الأسرة لم يعرف عن أى من أفرادها إصابته بأى مرض نفسى مشابه أو مغاير. الأب رجل طيب مجتهد اجتماعى محبوب، والأم حانية شاطرة قريبة جدا من محمود، تكاد تفضله عن أخوته (آخر العنقود، بهى الطلعة).

جاء فى شكواى محمود ما يلى :

حاسس إن شكلى أوحش، مش عاوز أطلع شبه والدى، عايز شكل مستقل، عاوز أبقى حاجة لوحدى، زمان كنت وسيم بس مش دلوقتى، أصل اخواتى بيحطولى حقن فى الأكل تخلينى أبقى عندى كرش، واتخن، ويمشونى على مزاجهم. لما بابقى فى الشارع باحس إن الناس بيضحكوا على وبيقولوا العبيط اهه، والبلد كلها بتكرهنى، وعايزين يفرحوا فىّ عشان شكلى أحسن منهم،

كنت عايز اهرب من البلد كلها....قلت لو هما مش راضيين يعترفوا ان هما السبب فى اللى جرى لى حاقتل نفسى.حاسس إنى ذكى زيادة، وعندى معلومات، ومخى كبير وممكن أبقى عالم كبير بس لو أهلى ينتبهولى"

ومن شكوى الأم:

"...هوه أول ما التعب جاله كان يغسل إيديه كتير ويفضل يعيد ويزيد، ويقف قدام المرايا ويبص على نفسه بالساعات، ويخش الحمام، يكب على نفسه ميه كتير، بعد سنة ابتدا يتعب ويتخانق ويمشى ويسيب البيت ويبات فى الجامع، وابتدا يتهم اخواته انهم عاملين له عمل عشان شكله يبقى وحش، ويشك فى الجيران وأهل البلد، يقول إن كل الناس فى الشارع عارفين حكايته وبيتكلموا عليه ويضحكوا عليه.

وصل الأمر بعد توقف العمل والانسحاب إلى العزلة أنه كان يتبول ويتبرز أثناء يقظته، ولو أن هذا توقف بعد دخوله المستشفى، وكان ذلك بمثابة علامة خطيرة على تدهور حالته.

وقد عولج بكل أنواع العلاج خلال أربع سنوات، وكانت استجابته ضعيفة أو مؤقتة طول الوقت.

شخصت الحالة كما ذكرنا تشخيصا سيء السمعة، ومع ذلك كان المريض حاضرا، وقريبا، ومتجاوبا، وعليه مسحة من حسن ظاهر، وطفلية طازجة، وإن كانت رخوة، وكان جميلا بمقاييس العامة بالنسبة للجمال: البشرة البيضاء، والشعر الناعم المائل إلى الحمرة، والملامح المتناسقة ..إلخ تمت المقابلة مع الأستاذ بعد عرض تاريخ الحالة، وكان بالمقابلة من الحوار والكشف ما يدعو إلى مراجعة التشخيص من جهة، وما يكشف أبعاد موضوعنا "الأصل والصورة من جهة أخرى"، مما قد لا يحتاج إلى تعليق.

الأستاذ:
= الدكتورة قالتلى إنك ما بتتحسنشى ،أو بتتحسن وتسوء على طول.
محمود:
- أيوه
= إنت خدت كل العلاجات بلا استثناء، وما فيش فايدة
- حضرتك يائس منى؟
= شكلها كده، بس يعنى
- يعنى ما فيش فايدة؟
= ربنا موجود ما حدش ييأس وربنا موجود
- الحل إيه ؟
= مااعرفشى، إنت بقى تشوف لنا حل وانا اساعدك فيه
- ما اعرفشى
= أنا حاعملك إيه ؟ إيه اللى عندى تانى، أضحك عليك واقولك عندى دوا جديد ما حصلشى، - وانا اعمل إيه ؟
- حاسس إن حضرتك زهقت منى
= أنا لحقت؟ زهقت منك ، ولا من حاجة فيك؟ أنا مش من حقى أزهق من عيان ، مابقاش دكتور
- إيه الحاجة إللى زهقت حضرتك
= إيه بقي حكاية شكلى شكلى شكلى ؟
- دى هى الحاجة اللى تعبانى
= إيه؟ شكلك ماله؟
- ما هية دى الحكاية
= خلينا نبتدى بداية جديدة. شكلك حلو ولا وحش ؟
= كويس، لا حلو ولا وحش.
- لا يا شيخ ؟!! إمال كل اللى احنا فيه ده إيه ؟ تعالى نتفق يعنى إيه "شكل" ، مثلا الدكتور همام، (أحد الأطباء المقمين) ، شكله حلو ولا وحش
- حلو
= هو ظريف، إنما شكله؟
- مش فاهم ؟
.....
= إسمع يا محمود : أنا متصور إن فيه محمود، وفيه شكل محمود، زى ما تكون انت استغنيت عن محمود وعمال تلف حوالين شكلك
-.... يمكن ، بس مش انا السبب
= عايزين نشوف كلمة شكل دى أولها إيه وآخرها إيه، 4 سنين عيا، وييجى عشر سنين تحضير للعيا، وادى احنا زى ما حنا.
- أهو دا اللى حصل (يضحك)
= إنت بتضحك على إيه؟ إنت مركّز على حكاية الشكل دى، ما عادشى عندك حاجة غيرها.
- هوا فيه إيه غيرها؟
= فيه محمود، هو إنت محمود ولا شكل محمود؟
- مش عارف.
= إنت باين استغنيت عن محمود، أو يمكن نسيته، أو يمكن عمرك ما عرفته.
-هم اللى اهتموا بشكلى، وشى إيه، وعنىّ إيه، وشعرى إيه .

= يعنى إيه؟
-يعنى هم اهتمو بشكلى كده ، و انا اتدبست فى شكلى، و نسيوا محمود
= آه صحيح، إيه حكاية ٱمّور دى
- أنا ما قلتش أمّور
= الدكتورات قالوا عليك قمور، إيه رأيك؟
- أنا ما ليش دعوة.
= إيه يعنى شاب عنده عشرين سنة يبقى أمور
-عند حضرتك حق
= عرفت الحكاية؟ أصلها وفصلها؟
- بصراحة انا شكيت فى حاجة زى كده.
= الأمّور راح، الأمّور جه
- أهو اللى حصل. هية الحكاية دى لها علاج؟ ولا طبيعية ؟
= يمكن طبيعية، بس ما توصلشى لدرجة إنك تتبرز على روحك، وانت صاحى زى اللى عنده أقل من سنة !
-.....
= مش كده ولا إيه؟ إنت بتكسل تروح دورة المية، يعنى إيه ما تتحكمشى فى ده؟
-يمكن كسل
= وانت عندك عشرين سنة؟ يكونشى عايز ترجع أيام الرضاعة الأولانية ؟
-مش عارف
= طب وبعدين؟
-وانا ذنبى إيه؟
= الظاهر لازم نبتدى ما الأول
-أول ؟ أول إيه ؟
= ماانت راجع للأول بعمايلك دى، بس الأول اللى احنا عايزينه يركز على محمود بدال شكله
- إزاى؟
= ما اعرفشى، الحكاية عايزة بداية بعيدة عن الشكل عايزين محمود، زى أى حد
-بس الحكاية دى من صغرى
= ما انا عارف
- كنت باقول لنفسى حاجة زى كده حتى قبل ما تقابلنى حضرتك
= بجد؟ يبقى ماشيين معقول. طب نعملها ازاى؟ عايزين نحلها
-أنا باعمل اللى على، حضرتك تحلها
= لا يا شيخ ؟ كسل برضه؟ أديك دوا أغلى، ولا نكرر العلاجات اللى ما نفعتش؟
-أعمل انا إيه، المطلوب منى إيه؟
= آدى احنا بندور على مفتاح
- هوا احنا لسه ما امسكناش المفتاح ، هم مش راضيين يعترفوا إن هما السبب فى اللى جوايا،
= إنت بتشاور على حاجة تانية، لما بتقول "اللى جوايا"، بتشاور على الوساوس والأفكار والعيا، مش على حكاية الشكل
- تقريبا
= حتى لو كانوا هما السبب، لكن لازم انت مشارك فى اللى جرى برضه.
-فى إيه؟
= ما اعرفشى، إوعى تكون فاهم إنى عار ، أنا باحاول معاك، كل اللى عارفه ان الحكاية محتاجة وقت
- يعنى أستنى قد إيه، ما انا بقالى أربع سنين
= أربعة عيا، وعشرة تحضير للعيا، نعمل إيه دلوقتى؟.
-أنا باعمل اللى على
= حكاية باعمل اللى على أنا مصدقك، بس لا هى كفاية ولا هى نافعة، بس أنا مصدقك،أنت بتسرح شعرك ازاى؟(كانت تسريحة شعره مميزة، وشعره مصفف ومجفف مثل الشباب الروش)
- باشده
= إسمع يا محمود، حتى لو كانواهما اللى عملوك، إنت الظاهر استحليتها، لا انت تقدر تتنازل عن شكلك ولا فيه حاجة موجودة تحل محله، زى ما تكون عملت قالب مظبوط، بس تيجى تدور عليك عشان تلبسه ما تلقاكش، ما فيش محمود يملا شكل محمود.
- ياخبر!!!
= لا انت قادر تتنازل عن شكلك، ولا تقدر تتمسك بيه عشان ما هوش انت، آدى المشكلة
- إيه الحكاية ؟ طب والوسوسة؟
= أظن هية تبع الموضوع ده ، الخناقة بينك وبين شكلك
- بس انا حاسس إن شكلى أوحش
= مشم فاهم، كان حلو واتوحش؟ ولا كان وحش وبقى أوحش؟
- زمان كنت وسيم بس مش دلوقت
= ما انت لسه وسيم وانت عارف كده كويس، أمّور، ما سمعتش الدكتورة، والدكتورة ؟ إسمع، أنا جتلى فكرة: لوتصورنا يا عينى ان فيه محمود جوه وإنه رافض إللى عملوه فيك ، لدرجة إنك كان نفسك تبقى قبيح، يمكن ما كانشى حاجة من دى حصلت ، مش قبيح يعنى وحش، قصدى عادى. يعنى تصورت ان من كتر ما ركزوا على شكلك تمنيت إنك تبقى وحش.
- أبدا، أنا تمنيت ان ما يكونشى حد أحلى منى
= ..ياه !! رغم إنك أحلى من كل اللى حواليك
- أيوه .
= يبقى شاركت فى الحكاية، ولسه بتشارك فيها لحد دلوقتى؟ بدل ما تدور على محمود اللى بحق وحقيق، قمت متمسك بمحمود الأمّور إللى مش هوا انت، وعايز تبقى أمّور أكتر؟ يا خبرّ يبقى الفرض اللى انا حطيته طلع غلط، دا انت طلعت شريك أساسى فى اللى حصل.
- أهلى هما أثروا فى، أنا اتمنى شكلى يرجع تانى زى الأول عشان أجذب البنات وكده
= ماهو لسه زى الأول، هوا إيه اللى جرى فيه؟ باقولك ايه: هم البنات بيتجذبوا للشكل ولا لحاجة تانية؟
- لحاجة تانية
= إللى هيه إيه بقى؟
- مش عارف. لما يكون الواحد طفل يعنى أقل من اربعتاشر سنة يحس إن شكله كويس، ينبسط، لكن لما بيكبر، يبلغ، يبقى عايز شكله يتغير على راجل، البنات يبصوله راجل
= وانت إيه اللى حصل معاك؟
- البنات سن 14- 17 ما بقوش يبصولى زى زمان، كنت عايز حاجة تانية، حاجة تملى حاجة ، يعنى مش عارف أقول ....

(واستمرت المقابلة، واتفقنا على خطوات العلاج، وحضر العلاج الجمعى مرة واحدة مع إعادة ضبط جرعة العقاقير، والتعهد ببداية أى عمل حتى قبل الشفاء، ولا يمكن التكهن بالنتيجة حاليا.)

تعقيـــب موجـــز

أشعر أن الحالة تشرح بعض ما أشرنا إليه من تنظير، فهى تظهر بشكل يكاد يكون مباشرا كيف أن التركيز على جزء من الكيان البشرى مهما كان باهرا وحقيقيا ويستأهل، يمكن أن يعوق الاعتراف بالكيان الكلى المشروع الحقيقى للإنسان، وأهم من ذلك هو أثر ذلك التركيز الجزئى فى إعاقة عملية النمو. الحالة أظهرت بشكل نادر كيفية تكون الأعراض ومعناه وغائيته، لكنها لم تظهر –مثل الأغنية- طريقة رأب الصدع. لا ينبغى الإسراع بتصور أن الحالة يمكن أن تشفى لمجرد وضع تفسير مناسب بهذا الوضوح، المسار الإيجابى الذى جاء فى بضعة سطور قرب نهاية الأغنية حتى نهايتها هو مسار صعب، يحتاج إلى وقت طويل، وضبط بيولوجى، وإعادة تأهيل، وخبرة ممتدة، وتعاون من الأهل، ويا ترى.

لكن كل هذه الصعوبات لا تقلل من إمكانية ما لوحت به نهاية الأغنية: "حابقى نفسى ليا انا، حابقى نفسى واحده واحده، حابقى زى ما حالّقى نفسى مستعده، آنا حابقى نفسى ليكم، يعنى ليا، آنا حاسمح إنى أملى نفسى بيا، حاتلاقينى فى رحابه زى ما هو خلقنا، عم باخبط على بابه: زى ما غيرنا سبقنا."